« لعبة الشيطان»

ثمة أشياء غريبة راحت ترين على سلوكه فى الآونة الأخيرة، لم يعد متحمساً للعمل ولامؤمناً بضرورة إتمامه على النحو الذى كان يرضى أبيه من قبل ، كان كثيراً مايبدى اعتراضه فى صمت؛ أصبح على مرّ الأيام ثورة احتجاج عارمة فى نفسه ، غمغم هامساً خشية أن يسمعه أحد :

- علام كل هذا الدمار السخيف !، ألا من نهاية ؟!.

كان فضولاً منه أن يظل واقفاً أمام جموعهم الحاشدة ، يراقبهم فى ضيق وقد اقشعر بدنه ، وبدا يُسفح عرقاً من هول مايرى، كانوا يتدافعون بالمناكب ، ويتقاتلون بالهراوات والمُدَى المعدنية الحادة ، تغطيهم السماء الداكنة بخيوطها المثالة كالدموع، ولا أحد يدرى إلام ستنتهى معركتهم الحامية الوطيس ، جذبه رفيقه من ساعده عدة مرات وهو يضحك بمجون وانفعال شديد قائلاً :

- هيه فيمَ شرودك ، ألا تشعر أننا قد أدينا عملنا على خير مايرام ، هيا بنا فأمامنا اللحظة الكثير من المهام الأخرى .

لحظات كان خلالها سكان الحى يشعلون النار فى أنفسهم ، طلقات الرصاص راحت تمرق بجوار الفضاء ، تمزقهم ، قطرات الدماء الساخنة تناثرت فوق أشلائهم المبعثرة فى كل مكان على سطح الأرض ، صراخ الصغار تحت الأقدام الكبيرة يكاد يطفئ وجيب القلوب ، ظل مطرقاً فوق رابية الجماجم العالية لاينبس ببنت شفه ، ويفيض على الصمت بفكره المتدفق كشلال جارف، عاد رفيقه وقد انتبه إلى الحال التى وصل إليها صاحبه ، وقف أمامه مباشرة وبعينين قرمزيتين تقدحان شرراً راح يتفرسه ويتأمله فى ريبة شديدة ، هزه من كتفيه هزة عنيفة وقد تخدد وجهه الهلامى كقطعة من العجين الجافة المشققة وهو يقول له بحدة :

- سوف تضيعنا أيها البكرى المدلل ويكون مصيرنا الطرد من مملكة النار الكبرى ، يجب أن تحذر من نفسك فأنا أكاد أسمع صوت الوسوسة التى تدور فى أعماقك الآن .

أطرق برأسه آسفاً متحيراً ، دنا منه متسائلاً فى همس وحذر شديدين :

- هل بكيت من قبل ؟!.

ضحك ضحكة مدوية جعلته يستلقى على قفاه وقد فغر فاه حتى آخره من المفاجأة بمثل هذا السؤال الآدمى ، أشرع بصره من طاق عينيه إلى عرض الطريق المشتعل بجثث الموتى ، ثم قال مبتسماً :

- عندما لايصبحون أغبياءً يتملكنى النشيج الحاد ، ولذلك لم أبكِ من قبل .

مرة ثانية عاد يدس شفتيه المتهدلتين فى أذن رفيقه الذى استحالت معالم وجهه فجأة إلى الاهتمام الشديد :

- ثمة أحاسيس عجيبة لاأعرف مصدرها تداخلنى ، وتدفع إلى أعماقى التمرد والشك فى جدوى تلك المهام التى نقوم بها فى كل لحظة .

وفيما هو ينكس رأسه كانت تنهيدة حارة تشق صدره المقبوض إلى الخلاء الرحب ، ثم استطرد قائلاً بوجه عبوس :

- إننا مجرمون نحب رائحة الدماء ، وتفعمنا الغبطة كلما اشتد الدمار وانتصر الفساد ، فلماذا بِرَ.....؟! ، آه إن ألف لماذا وكيف وهل تسكننى وتمزق حشايای .

بدا رفيقه متأثراً ومرعوباً من هول الذى سمعه ، ومِنْ مَنْ؟!!، فقال بصوت خفيض وقد توجس خيفة :

- يبدو أن لوثة قد أصابت جَنَانك ، ياويلتى إن هذا الكلام جد خطير ، فماذا لو أن أبانا سمع بمقالك هذا !؟.

سكت برهة ثم أردف قائلاً والحيرة تتلاعب بمخالبها فى تقاسيم وجهه الأسود النارى :

- ثم إننى لا أستطيع الوشاية بك خوفاً من انتقامك لاخوفاً عليك ، لقد وضعتنى فى مأزق حرج ، وأى مأزق !.

كانت الشمس قد هوت بساعديها فى لجة الظلام الدامس ، مضيا معاً يتسللان وقد لفهما السكون التام ، وبات لايسمع غير ضجيج الهمس المعتمل فى نفسيهما ، قال فجأة بصوت هتك نُسج الليل وهو يستند إلى صخرة ناتئة فى الجبل ، وقد ارتكز على ساق وجعل يطيح بالأخرى فى الهواء مرة تلو مرات :

- أعرف أننى قد أصبحت شاذاً مثل أبى بين الملائكة ، فليتنى أعرف مَنْ الذى أشعل فى نفسى تلك الأحاسيس المرعبة .

همس رفيقه وهو يهم بالانصراف وقد استكنه الرعب تماماً :

- أخشى أن يكون.....

ثم تبدد فى جوف المجهول وصرخاته ترجرج السماء على رحبها رجاً عنيفاً .

كانت جالسة القرفصاء تدير بعينيها سحب القلق المتصاعدة من أعماقها ، أخذت تسلطهما عليه لمدة طويلة أربكته ، نهضت على قدميها المرتعبتين تشق جموعهم المتشحة بهيئات سوداوية مهفهفة وكأنهم سحب السماء العاصفة ، لمعة أعينهم تخترم ظلمة الليل والتى بدت متناثرة كحبات الزيتون الأسود البارقة ، بعضهم راح يطوف صارخاً حول شجرة قاصية مازالت تحرق النار بأوراقها المتساقطة فى مهاوى الريح ، دنت منه حتى التزمته تماماً ، ثم أهوت بعينيها الحارقتين عليه ، ارتعب ، بدا مقروراً محروراً ، كاد يلبس الريح ويتبدد كالدخان ، يصرخ ويكتسحه العجز حتى أنفاسه ، قالت هامسة وهى تأمره أن يلزم الصمت بإشارة من يدها الزعنفية الهيئة :

- إن أعماقى تكاد تسكن فى قاع هواجسك المهتاجة ، إننى مثلك تماماً أتمزق .
- أنتِ يازوجة أبى !!؟.
- وماالغريب فى ذلك ؟.
- كنت أحسبك أقرب الجميع إليه قلباً وقالباً .
- أجل ولكن هذا لايمنع أننى ثائرة مثلك ومثلهم .
- ماذا ! ، أثائرون هم أيضاً !؟ .

أطرقت آسفة وهى تتمتم فى يأس :

- نعم ، ولكن ماالفائدة .

راح يقترب منها حتى كاد يلاصقها ، ثم سألها باهتمام شديد وقد ازداد همسه وحذره :

- بما أنكِ أقربنا إليه فلماذا عصى وتكبر و.....

قاطعت السيل المتدفق من أعماقه بإشارة مرتعشة من عينيها وقد بدتا كترس ذهبى بارق يدور بسرعة جنونية ، وفى قلبه تروس أخرى تلمع بألوان غريبة لايعرفها البشر وهى تقول :

- أنت تقتل نفسك ، فالسؤال الذى لاإجابة له يقتل صاحبه، إن أباك مجرماً لايرحم أحداً فكن محتاطاً لنفسك ولنا .

كانوا يحترقون فى أعماقهم ويشعرون أنهم هلكى إن عاجلاً أو آجلا ، راح يصرخ فيهم ، ويضرب كفه فى جبين رأسه المخروطية الشكل قائلاً :

- كل هذا مضيعة للوقت ، لقد أصبحنا ضعفاءً إلى حدٍ لايطاق .

زجره رفيقه صارخاً ، كان أكثرهم خوفاً وضجراً .

- أيها اللعين ، لقد غمرتنا بوساوسك وشكوكك الواهية ، كف وإلا نبذناك .

تخطاه بنظرة ازدراء حارقة ، جعل يدنو منها ، قذف بعينيه فى عينيها الحائرتين ، ثم تساءل إليها يائساً :

- أكاد أغرق فى الحيرة مثلك ، ماذا ينبغى علينا أن نفعل ؟.

يئس تماماً من أن تجيبه ، انطوى على نفسه لاينطق بكلمة أخرى .

مرة ثانية افترشهم العجز وقد شخصوا بأبصارهم الكليلة إلى سماء غير سماء الدنيا ، ولكن شيئاً ما جعلهم ينتفضون فجأة ، ويتزلزلون ، لم يتفقوا على شئ بعينه وان تلاقت نظراتهم المتلألئة بقطرات الدمع ، شق فجأة صوت مخنوق جلبة السكون وهو يجهش بالبكاء الحار :

- لقد عصينا وكفرنا ، ضللنا وأضللنا .

رد عليه آخر وثورة الاحتجاج تخالج همس نبراته :

- لقد عصى وغوى فما جريرتنا نحن ؟!.

هب متوسطاً جموعهم كالطود الأشم :

- هذه فرصتنا الوحيدة لكى ننتصر لأنفسنا .

ثم دار بجسده وذراعيه ونظراته دورة كاملة حول نفسه صارخاً :

- ياأبتِ كفاك مكراً وخداعاً ، لتظهر حتى أقتلك عليك اللعنة .....

جذبه رفيقه من معصمه بقسوة وهو يصر على أسنانه :

- قد يسمعك يامجنون .

قال بلامبالاة صدفت به عن توخى الحذر :

- ليسمع عليه اللعنة الأبدية وعليك .

مرت لحظة صمت عصيبة ثم أردف قائلاً وهو يشتعل بالرغبة والحماس :

- لقد حلقت اليوم بجناحى الغضب ، بالقرب من مغارة الجماجم السرية التى يختلى فيها إلى نفسه ، وكان غارقاً حتى رأسه فى التخطيط للنظام الأرضى الجديد ، ألم أقل أنها فرصة وربما كانت الأخيرة .

كانت لحظات فارقة فى وجودهم جميعاً ، كانوا يتأرجحون بين رغبتين متناقضتين تماماً ، الفرار أو الثبات ، وكل رغبة راحت تشدهم من طرف بجنون حتى كادوا يموتون سحلاً وبالبطئ ، فى تلك الأثناء رفعت زوجة أبيهم عقيرتها قائلة فى حزم :

- ماذا تنتظرون ، هيا بنا جميعاً نمضى قدماً نحو التوبة .

هـب أحدهـم وهـو ينظـر نحـو الجميـع إلاهـا ، وطـرف سـبابته المدببـة كـرأس الدبـوس الحـاد يـكاد يختـرق حدقـة عينهـا الغائـرة :

- حسـبكم ، هـذه امـرأة مخبولـة لاتسـمعوا لهـا فلاأظـن أن لمثلهـا أو لمثلنـا مغفـرة .

ثم توجه بناظريه نحوه صارخاً :

- ولنطـرد هـذا العاصـى ابـن العاصـى بعـد مـا أشـعل فـى مطاوينـا نـار الثـورة والضميـر .

انسـكبت كلماتـه فـى نفوسـهم كالمُهـل يشـويهم ، لاذوا جميعـاً بالصمـت ، قـال وهـو يسـبل عينيـه وقـد بـدا حزينـاً يئوسـاً :

- هيـه تذرونـا الريـح العاتيـة فـى وجـه إعصـار أشـد عتـواً ، فيالبؤسـنا جميعـاً .

●●●

كانـوا جلوسـاً وقوفـاً لايعـرف لهـم حـال ، سـقط نظرهـم فجـأة علـى شـئ منيـر يتلجلـج مـن بعيـد داخـل عبـاءة فضفاضـة ، أيـدى الريـح العابثـة جعلـت تتلـوى وتنتشـر بأطرافهـا الناصعـة البيـاض علـى صفحـة الليـل البهيـم ، بـدا شـيخاً وقـوراً يسـتند إلـى الهـواء فيحملـه ، ويسـجد علـى الأرض فيضـئ المظلـم منهـا ويثبـت المضطـرب ، خشـعت

أبصارهم، ووجلت نفوسهم إجلالاً لمنظره المهيب ، كانوا يرتجفون مثل رياش هشة أطلقها الحظ خبط عشواء فى طريق ضبابى عاصف بلا معالم .

نطق ناطق منهم بعينين مؤملتين بالرجاء يستحثه وينتظر منه المبادأة :

- أرأيت ياكبيرنا مارأينا ، يبدو أنه صاحب كرامات وحكمة تغور فى أعماقه مسافة ألف عام ركض وأخرى طيران بأجنحتنا المشرعة للأفق .

راحوا يقتربون منه وقد توجسوا خيفة من كل شئ ، كان عجوزاً تبدو عليه مخايل النجابة ، يتوكأ على التسعين من عمره، نظر إليهم ملياً ، ثم أخذ يتفحصهم واحداً بعد الآخر فى هدوء وطمأنينة، فيما كان يتقدم نحوه بحساب وهو يقول بصعوبة بالغة للشيخ :

- معذرة أيها السراج المنير ، لقد كنا نرتاع من هيئتك نحن أيضاً ، حتى أننى أخشى من التقدم خطوة أخرى نحوك فأحترق كالهشيم .

تقدمت أمهم حانية الرأس نحوه وقد احتفظت بمسافة كبيرة بينهما ، ثم قالت وهى تلملم فلول شجاعتها :

- يبدو أن حظك العاثر ياسيدى قد أوردك الليلة سكة العصاة والخطاة فهلا عذرتنا .

سكتت برهة ثم استطردت قائلة برجاء :

- ياشيخنا ، مُرنا فنطيع أو تقيرنا المعصية إلى الأبد .

تحلقت أبدانهم المهفهفة وتماسكت بأياديهم الرغبة ، بدوا كدائرة سوداء مرعبة تدور حول نقطة بيضاء ضاوية ، انسل من بين جموعهم وهو يقول بنبرة رجاء عالية :

- أيها الشيخ النبيل ، هلا كنت ناصحاً أميناً لنا لدقيقة واحدة فقط .

تململ الشيخ فى وقفته ، رفع أذناً وأصغى بالأخرى ، ثم نطق بعد أن فرغوا من حديثهم المتوتر قائلاً فى هدوء وسكينة :

- وان كنت أنصح لنفسى أن تبتعد عن هيئاتكم الشبحية المخيفة ، إلا أننى وهبتكم دقيقة من وقتى الثمين فحسب ، هاتوا ماعندكم .

قال محبوراً :

- إننا فرحون ، إننا جد .....

فقال يتعجله :

- لقد شارفت دقيقتكم على الانتهاء ، سوف أمضى .

لحق به متلعثماً :

- مهلاً أيها الرجل الطيب ، إننا ضالون ونريد التوبة إلى .....

توقف عن الكلام وكأن حجراً قد سد حلقه ، ابتسم الشيخ وهو ينظر إلى السماء قائلاً :

- إلى مَنْ ؟ ، مابالك لاتنطق اسمه !؟.

- يبدو أن فطنتك قد خانتك هذه المرة ، ألا تعرفنا!!؟.

- بل أعرفكم جيداً أكثر من معرفتكم لأنفسكم أيها الملاعين .

تنحنح الشيخ ثم طفق يوليهم ظهره ويحث الخطى على الانصراف ، وهو يقول فى تؤدة ونورانية بادية :

- توبوا تثابوا ، أو عودوا أدراجكم تصحبكم اللعنة .

تقدم نحوه من بعيد ثم سبقه وهو يرجوه أن يجيب :

- ليست حاجتنا إلى ماقلت ولكن إلى الوسيلة ، كيف ؟.

تكلم وهو ينسحب من بين جموعهم ، وهم يتوسلون إليه كالغربان المحلقة :

- إن أباكم قد عصى وتكبر إذ كيف يسجد للطين وهو من النار المقدسة ، فلتسجدوا إلى الطين يابنى أبليس وهذا ماعندى .

- ولكن آدم قد ذهب ، والأدهى أننا سمعنا أن أبانا فى النار فى النار .

تجهم وجه الشيخ وقال فى ضيق بادٍ :

- حسبكم لاتنطقوا اسمها أمامى ، هيا ماذا تنتظرون ؟!.

راح يتبدد كسحائب الفجر السرمدية ، قال أحدهم متبرماً وهو يودعه بنظرة آسية :

- هل فهم أحدكم مايعنيه ذلك المخرف ؟.

قالت بعد تفكر عميق فى حزم قاطع :

- أحسبنى قد فهمت مقصده ، فلتفعلوا مثلى .

قال لها واليأس لسان حاله :

- إننى عجزت عن فهم مارمى إليه ذلك الشيخ المسن .

- فقط انتظر حتى يمر بنا أول آدمى .

ثم أردفت قائلة وكأنها تبث السكينة فى أنفسهم المتقدة بالخوف :

- إن أبناءه من طين أيضاً وهم كثرة كأرجال الجراد .

راحوا يلبون أوحى من رجعة الطرف ، وقفوا على مشارف الطريق ينتظرون قدوم أى طيني ، أصابهم القنوط ، مرت بهم أسأم وأكأب الأوقات ، كان الجميع يسبونهم ، ثم ينطلقون هرباً وراء سيقانهم فى أثر الريح هلعاً من مناظرهم اللعينة ، فجأة انقطع حبل السكون ، شاعت الجلبة بينهم ، أخذ يخترق صفوفهم، كان أحدباً قبيحاً ومنكفئاً على ظله ، ارتمت ساجدة أمامه تسد عرض الطريق وقد انخرطت بهم فى نوبة من البكاء الحاد ، تصرخ ويصرخون فى تضرع وخبت :

- اغفر لنا ، اغفر لنا يا.....

تأزم وجهه ، صار يرتعد كالمصروع ، سكن العجز أوصاله ، سأله وأمارات الدهشة والغرور تتراقص فى عينيه :

- مابالك أيها القزم القمئ لاتهرب مثلهم ؟!.

نهرته قائلة :

- لاتكن وقحاً عنيداً كأبيك ، هيا .

دفع التراب برجله القصيرة فى عينيها ، جلجلت ضحكاته، تزلزلت لها الجبال الشواهق ، تلاشت معالمه ، أصبح عملاقاً شريراً نارى النظرات ، هبوا جميعاً من فوق أنفسهم لايصدقون رصد العيون الخائفة ، فى أثر بعضهم البعض راحوا يجفلون ركضاً وطيراناً فى كل ناحية ، وهم يصرخون فرقاً حتى أصبحوا أثراً بعد عين ، اقترب منه بهيئته البشعة ، أخذ يربت على كتفه بقوة وهو يقول فى زهو وفخار ، ويضحك كالمجنون :

- لقد كنت واثقاً فيك منذ البداية يابن الملعون ، هيا معى فالفرصة مواتية الآن لنفعل شيئاً عظيماً .

ذابا معاً فى جوف الظلام الدامس الذى تحول بغتة إلى كتلة بركانية هائلة شديدة الانفجار !!!.

●●●